القديس أنبا بفنوتيوس المتوحد

مليكة حبيب يوسف

يوسف حبيب

القديس أنبا بفنوتيوس
المتوحد

كافة الحقوق محفوظة

١٩٧٧

مترجم من Les Vies des Pères des Déserts d'Orient
R. P. Marin — Michel — Ange
Avignon 1761.

مليكة حبيب يوسف يوسف حبيب

بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين

صاحب الغبطة والقداسة

الأنبا شنوده الثالث

بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

نترجم للقديس بفنوتى المتوحد فى القرن الرابع الميلادى الذى روى لنا سيرة القديس أبو نفر السائح وسنوافى القراء بسيرة السائح القديس فيما بعد .

أسس القديس بفنوتى ديره فى أقصى الصعيد . وقال عنه المحدثون من اليونان أنه من أهالى صيدا . واشتهر بفضائله فى هذه المنطقة .

عند زيارة « روفان » Rufin لديره سنة ٣٩٠ كان القديس بفنوتى قد تنيح ، فلم يرو إلا ما سمعه عنه . كان يحيا حياة مقدسة حتى أنهم كانوا ينظرون اليه كملاك أكثر منه كانسان . وكان يسعد بملازمة الارواح الطوباوية ، فأثناء صلاته أراد أن يعرف مدى تقدمه فى الفضيلة ، فأنبأته إحدى هذه الارواح المقدسة أن له أن يقارن نفسه بأحد الموسيقيين الذى يحترف الغناء فى قرية قريبة .

+ + +

١ ـ اللص الموسيقار الرحوم

فتعجب لذلك وإذ كان متضعاً أسرع لزيارة هذا الرجل مع أنه يبدو أن مهنته ليس لها أية علاقة بالفضيلة الكاملة، رغبة منه فى إستطلاع أمره ، وليعلم كيف تحسبه السماء مع ماهو عليه فى مستوى المتوحد الذى يجهد نفسه بكل قوته فى أعمال التـــوبة وممارسة الكمال . ولشد ما كانت دهشته حينما رد عليه لما سأله عن سلوكه الروحانى أنه خاطئ جداً يعيش من الاموال المسروقة قبل ممارسة مهنته الحالية .

فطلب منه الانبا بفنوتى أن يقول له على الاقل إذا كان فى زمن إرتكابه سرقاته ، قد صنع بعض الاعمال الحسنة . فردعليه أنه لايتذكر سوى اثنين : الاول أنه كان ذات يوم مع بعض اللصوص الآخرين ، فأخذوا فتاة كرست نفسها لله ، وأراد زملاؤه أن يهينوها ، فانتزعها من أيديهم ، واتادها ليلا إلى قريتها دون أن يلحق بها أى ضرر .

والثانى أنه رأى فى الصحراء إمرأة فى حيرة ، لان بعض الدائنين زجوا بزوجها وأولادها فى السجن ، وكانو يبحثون عنها أيضا ليقبضوا عليها، فتأثر جداً لذلك، لدرجة أنه إقتادها

إلى مغارته ، وكانت لم تتناول طعاماً منذ أربعة أيام ، فأطعمها فتنوت ، ثم أعطاها ثلاثمائة قطعة من الفضـــة لتسدد ديونها ويخرج زوجها وأولادها من السجن .

وكان القديس أنبا بفنوتى يتعب من أعمال الرحمة الصادرة من لص وانتهز الفرصة ليحثه على الاستفادة من رحمة الله. قال له:

« حقاً انه ليس لى شوء مماثل ، ومع ذلك أظن أنك لاتجهل أن إسم بفنوتى يعرفه المتوحدون بسبب رغبتى الشديدة فى التعليم وممارسة أسلوبهم فى الحياة، وقد أوحى إلى . أنك عند الله لست بأقل . فتأمل سمو قدرك عند الله جلت قدرته ، ولاتهمل العناية بروحك ».

فمست هذه الكلمات قلبه ، وامتلأ عرفاناً بالجميل نحو الرحمة الإلهية. وفى الحال ألقى بمزماره الذى كان فى يده ، وتبع القديس فى الصحراء ، وكان يطيعه فى كل مايأمره به ليسلك فيه، إلى أن أسلم روحه وسط الجوقات الملائكية بعد ثلاث سنوات قضاها فى ممارسة الفضائل الدينية .

+ + +

٢ - مضيف الغرباء

ومنذ النهاية السعيدة التي نالها هذا التائب، كان أنبا بفنوتي أكثر حماساً نحو الكمال، ولكي يعرف بالأكثر ماذا كان يطلب الله منه، سأله مرة أخرى أن يعرفه بمن يستطيع أن يقارن نفسه. فكان الرد إليه أنه يشبه الرجل الأول في سكان القرية القريبة. فذهب هناك فوراً، ولم يجد مشقة في أن يحسده، لأن ذاك تقدم إليه واقتاده إلى بيته وغسل رجليه وصنع له وليمة عظيمة.

وفيما كانوا يأكلون سأله الأنبا بفنوتي عن أسلوب حياته، ولكنه وجد الرجل ميالاً بالأكثر إلى أن يعلن عن أخطائه، بدلاً من أن يتكلم عن الخير الذي يصنعه، وما كان ليعلمه شيئاً من فضائله، لولا أنه عرفه أن الله هو الذي أرسله لكي يعرف من فمه عما كان يصنع إبتغاء خدمته، وهو تعالى أيضاً يحسبه مستحقاً أن يقضي بقية حياته بين المتوحدين. حينئذ قال له الرجل:

«لا أعرف خيراً صنعته. ولكن بما أنك تركد لي أن الله

قد أوحى إليك عني. فلا يمكنني أن أختفي أمام ذاك الذي كل شيء معروف لديه. وسأدلي إليك كيف كنت أتصرف تجاه الذين كنت أعيش بينهم.

فمنذ ثلاثين سنة لم أعاشر زوجتي بعد أن أنجبت ثلاثة أولاد. وما كنت أرفض أبداً ضيافة أحد، ولم أحتمل أبداً الانتظار حتى يخبروني باستقبال الغرباء واستضافتهم. لم أترك أبداً ضيفاً دون أن أعطيه ما يلزمه لاستكمال رحلته.

لم أحتقر فقيراً أو أمتنع عن تقديم المساعدة له عند إحتياجه. وحينما كان الأمر يتعلق بالحق والعدالة، كنت لا أفضل إبني ذاته على حساب القريب. ولم يدخل بيتي ثمر تعب الآخرين. وحينما كان يصل إلى علمي أن بعض الناس يتشاجرون كنت أجتهد دائماً في التوفيق بينهم. وما كنت لأعطي أولادي فرصة لتكون لأحد شكوى عليهم، ولم تتسبب قطعاني في ضرر أموال الآخرين. ولم أمنع الآخرين من أن يزرعوا في أراضي، وقنعت بزراعة الحقول التي تركوها لي حرة. حاولت على قدر الإمكان أن أساعد الضعفاء ضد تجبر الظالمين الأقوياء. وكنت حريصاً ألا يتكدر أحد مني، وحينما كنت أرأس بعض جلسات الحكم،

كنت أجتهد لأجعل الاطراف يتفقون بدلا من أن أحكم على أى طرف . هذا برحمة الله هو الاسلوب الذى عشت به حتى الآن » .

فبهر الانبا بفنوتى لهذا السلوك المملوء محبة ، فلم يتمالك نفسه وأحتضنه وإذ أيقن أنه فى إستطاعته أن يصير من أغنى من تفخر بهم الرهبنة ، قال له :

« بما أنك أكملت كل هذه الامور ، فلا ينقصك سوى أن تضيف اليها أن تنكر حقيقة كل شىء فى هذا العالم وتحمل صليب الرب يسوع المسيح وتسير فى طريق الكمال وراء المعلم الإلهى » .

فوجده من كل قلبه مستعداً لاتباع هذه النصيحة ، وهكذا ذهبا بدون تأخير إلى الصحراء ، حيث أسكنه القديس فى القلاية التى كان يسكنها الموسيقار . وفضلا عن ذلك زوده بالنصائح اللازمة لكى يدخل فيما أعدته له رحمة الله . فسار هذا التلميذ الثانى فى خطوات التلميذ الاول بأمانة عظيمة ، حتى بلغ درجة من القداسة فى زمن قليل ، وذهب أخيراً ليأخذ إكليل المجد فى الابدية وسط تهليل الملائكة ، كما أعلم الرب القديس بذلك .

فكان هذا المثل الثانى حافزاً أيضاً للأنبا بفنوتى لكى يتقدم بأكثر سرعة فى الكمال . وكان يقول لنفسه : « إذا كان الذين فى العالم يعملون أعمالا ممتازة ، فكم أكون ملزما كمتوحد أن أجتهد لكى أتقدم عليهم فى تدريبات التوبة » . وهكذا كان يزيد تقشفاته السابقة ، وكان يثابر بالأكثر فى الصلاة المقدسة .

+ + +

٣ – التاجر المحسن

ورغب مرة ثالثة فى أن يعرفه الله حاله ، وسمع من جديد صوت السماء يقول له أنه يشبه تاجرا يأتيه . فأسرع القائم ، نزل فورا من الجبل وتقابل فى طريقه مع هذا التاجر ، وكان قد حضر من الصعيد الاعلى عن طريق النيل ، وقد حمل سفناً عديدة بالبضائع ليوزعها على الفقراء ، وكان فى طريقه إلى الدير ومعه بعض الخدم يحملون الخضر التى كان يريد أن يقدمها له .

فما أن رآه الانبا بفنوتى حتى قال له : « أيتها النفس كثيرة الثمن فى نظر الله ، لماذا تهتم بأمور العالم ، وخليق بك ألا تهتم سوى بالامور السماوية ؟ أترك الذين يفكرون فى الارض فقط يهتمون بها على قدر ما يريدون ! أما أنت فلا يكن لك هدف آخر سوى أن تصير تاجراً لملكوت الله ، وأتبع يسوع المسيح الذى يدعوك أن تخدمه وحده بأمانة » .

فكان لتلك الكلمات فى هذا الإنسان نفس الوقع الذى

كان فى الآخرين . فأمر التاجر خدمه أن يعطوا الفقراء كل ماكان تبقى له من مال ، وتبع القديس إلى القلاية التى سكن فيها الآخران الواحد بعد الآخر . فقد كانا قد تنيحا بسلام الرب ، واقتدى بحياتهما المقدسة ، وبعد قليل أكمل سعيه فى قداسة عائلة .

توبـــة تايس

هكذا كان الله يستخدم الانبا بفنوتى فى أعمال رحمته العجيبه التى كانت تعود بالفائدة الروحية على هذا القديس المتوحد كما كانت تفيد الآخرين .

ولكن يمكننا أن نقول أن أثمن ثمر لرسالته ، هو ماظهرت فيه عظمة صلاح الله بتوبة خاطئة شهيرة ، اشتهرت بتوبتها فى الكنيسة بأكثر مما كانت تشتهر به فى العالم بفسادها .

ويعزو بعض المؤلفين هذا العمل إليه ، فلن تشله هذا المجد ، هذه التائبة الشهيرة هى تايس . (لزيادة المعلومات أنظر كتابنا (أفراح السماء بالخاطئات التائبات) ولو سمحت الامانة التاريخية إذن لحذفنا من حياتها السنين الأولى ، ولكن إذا كانت هذه السنون تثير الفزع ، فسوف نجد رحمة الله فى توبتها الكريمة الفجائية ، وأن فيها للخطاة حافزاً للرجوع إلى الله ، ومثالا للرجاء فى رحمته ، وقدوة لإرضاء عدالته .

+ + +

نياحتـــه

لم يعرف كم كان عمر القديس بفنوتى وقت نياحته أو فى أى سنة تنيح . وروى « روفان » Rufin أنه ثابر على الحياة النسكية الشديدة ، فظهر له ملاك ودعاه ليتبعه فى المظال الابدية ، حيث الانبياء يستعدون لاستقباله .

فى هذا الوقت حضر إليه بعض الإخوة ليزوروه ، فكلمهم وقال لهم : « لايجب أن تحتقر أى إنسان فى هذا العالم ، مهما كانت الحالة التى اختارها لنفسه ، لان فى الحياة من يعمل فى الخفاء أعمالا مرضية لله جدا » .

وبعد أحاديث تقوية مماثلة ، أسلم الروح بهدوء الله . وشهد كل القسوس والمتوحدين الحاضرين أن الملائكة حملت روحه وهى ترتل التراتيل لمجد الله .

+ + +

الملحق

ظهر قديسون كثيرون باسم بفنوتى فى القرن الرابع وغيره. فرأينا أن نأتى بطرف من أخبار أشهرهم فيما قبس من أنوارهم. وهى مترجمة أيضاً عن الفرنسية للآب شينو طبعة القدس١٩٢٣

Les Saints d'Egypte

R P. Paul Cheneau, d'Orléans

ولم يظهر بالعربيـــة شىء عن هذه المجموعة باسم بفنوتى وأغلبهم عاصر القديس أنطونيوس وتتلذذوا على يديه. ومنهم من كان له شأن يذكر فى المجامع المقدسة وبانتظام هذا العقـــد الفريد نستبين الكثير عن القديس الانبا أنطونيوس وعن المجامع المقدسة، فضلا عن أنه منهم الراهب والقس والاسقف ومنهم الشهيد والمعترف وكلهم قد بلغ شأواً بعيداً فى التوحد والقداســـة حتى جرت على أيديهم الآيات الباهرة. وتدفقت منهم النعم الزاهرة. وأبلوا بلاء حسناً فى الديارات والمجامع، فعلت أصواتهم دفاعاً عن الحق وعن القضايا الإيمانية.

(١)

القديس بفنوتى المتوحد بشيهيت

يذكر التاريخ القديس بفنوتى نجماً لامعـــاً من متوحدى شيهيت فى أكرم مصاف القديسين حتى ليذكر مع القـــديس مقاريوس والقديس سرابيون الكبير.

وكان القديس الأنبا أنطونيوس العظيم الذى عاصره، يعتبره ذا فطانة ممتازة وأهلا للعمل من أجل ربح نفوس كثيرة. وقد أمضى أكثر من ثمانين عاماً فى عزلته فلم يكن فى هذه المدة يلبس ثوبين معـــاً مهما كان البرد قارساً فى ليالى الشتاء. وقد أعطاه الروح القدس موهبة فهم المعانى الخفيـــة فى الكتب المقدسة، فبالرغم من أنه لم يتخصص فى الدراسات، كان مشهوراً بأنه أفضل المفسرين بالصحراء.

وكان ثباته فى الإيمان القويم بحسب مجمع نيقية سبباً فى نفيه. فقد أمر «فالنس» Valens بنفيه فى «ديوسيزاريه» Diocésarée بفلسطين. وعند عودته وجد تهالقديسة ميلانه أثناء زيارتها لنتريا، وكان لها شرف الحديث معه وقد كان محسدها عليه الكثيرون.

جاءه بعض الشيوخ الرهبان إلى مكان عزلته يطلبون حديثاً فى الوعظ، فاكتفى بالرد قائلا:

« ليكن العمل والتعب مفضلا على الراحة، وأعتبروا فتواضع أعظم من المجد، وأحبوا العطاء أكثر من الأخذ ».

وتصادف ذات يوم أن قابل فى طريقه جمعاً من الاشخاص كانت تبدو على وجوههم الريبة فتذكارا لصوصاً، رآهم جالسين على الارض وبأيديهم الكؤوس، يتذوقون بعض قرب نبيذ منطقة مربوط، التى سرقوها. فعرفه رئيس العصابة وكانت قناعة القديس وزهده قد أصبحت تجرى مجرى الاساطير، لما عرف عنه أنه لايذوق الخمر إطلاقا.

لم يتردد اللص ! بل ملأ كأساً كبيراً وقدمه بيده للقديس المتوحد، وكان بيده الاخرى خنجر يهدده به قائلا : « أيها الراهب أشرب هذا أو تقتل »، فأخذ الانبا بفنوتى الكأس بيده وشربها كلها. فقال اللص : « سامحنى يا أبى إذا كنت أحزنتك ».

فرد الانبا بفنوتى : « أرجو ان الله نظير محبتك يرحمك فى هذا العالم وفى الآخر ».

فرد اللص : « وإنى أعدك ألا أعود لاذى أى إنسان حتى أنال رحمة الله ».

وكان لقدوة الرئيس فعالية جبارة، فانضمت إليه سائر العصابة، وكانت توبة عامة.

(٢)
القديس بفنوتى القس

وهو أيضاً من تلاميذ القديس العظيم الانبا أنطونيوس تقابل معه فى شيهيت وصار يسترشد بفضائله.

فحينما كان لا يزال فتى ذهب إلى الدير وقرع بابه، وتدرب فيه على أصعب تداريب التوبة، ثم بحث عن مكان منعزل لا يستطيع أحد أن يصل اليه ليقضى به أيامه، إذ كان محباً للوحدة جداً.

وقبل أن يقوم بتنفيذ هذا القرار، أراد الله أن يجربه تجربة دقيقة مؤلمة فكانت سبباً فى إظهار صبره وتواضعه.

كانت الامثلة العجيبة التى يعطيها لكل الدير إذ كان راهباً شاباً، سبباً فى إثارة الغيرة الرديئة فى قلب أحد المتوحدين الضعفاء، فقرر أن يشوه سمعته، ودبر فى ذلك أمراً مستعملا ما أستطاع من مهارة.

فدخل يوم أحد أثناء القداس قلاية القديس بفنوتى فى غيابه ومعه كتاب له، فرفع الحصير وأخفاه تحتها، ثم خرج وماليث أن إنضم إلى المجموعة كأنه لم يأت شيئاً، ولما انتهى القداس،

ذهب ليشكو لرئيس الدير سرقة الكتاب ، وأن الكتاب كان فى قلايته قبل القداس ثم إختفى. فعم الحرج بين الجماعة ، وهم قوم أمناء. وما كان لاحد أن يشك فى أمانة زملائه . فمن يجرم حوله هذا الشك ؟ ولكن الراهب الخبيث أصر وكان يلح على أبى الدير قائلا :

« يا أبى ، عليك بالطريقة التى أقترحها ، فهى بسيطة للغاية. فليبق كل الرهبان بدون إستثناء فى الكنيسة ، ثم فتشوا جيداً فى القلايات » .

فلكى تهدأ النفوس من جهة ، ولكى يصمت المشتكى من جهة أخرى، أقره أسيذوروس القس على هذا الرأى ، فانتدب ثلاثة إخوة ليتمموا بالتفتيش. ففتحوا كل القلايات وقلبوها من أولها لآخرها ، فكانوا يقلبون الاسرة وينفضون كل الحصر ويقلبون السلال . وأخيراً وجدوا الكتاب فى قلاية القديس بفنوتى أثناء تفتيشها مثل سائر القلايات . فرجع الثلاثة الرهبان ومعهم ما يثبت إدانة القديس بفنوتى بالسرقة.

فبدلا من أن يثور لهذه الفرية ويعترض بشدة ، إكتفى بشهادة ضميره ، وسلم دعواه إلى الله ولم يبد أى تعجب ، بل

إرتضى الاتهام والقس المغفرة بالخضاع وتوسل اليهم أن يقبلوه تائباً ويعاقبوه ، وقد قرر الخضوع لما يفرضونه عليه .

خرج من الكنيسة كمفروز . ولمدة أسبوعين ضاعف من أصوامه ، وكان متضعاً أمام جماعة الحاضرين ، وتأخر عن التناول من الاسرار المقدسة. فارتمى الله هذا السلوك العجيب.

أما المذنب الحقيقى فقد نال جزاءه ، إذ اعتراه روح نجس أرغمه على الاعتراف بخطيته . فكانت ثورة فى الدير ، وقاوم الشيطان كل القديسين الذين حاولوا إخراجه. فلم يستطع أحد من المتوحدين أن يخرجه ، ولا أيضاً الانبا أسيذوروس الذى كان له سلطان كبير على الارواح النجسة حتى أن الشياطين كانت تخرج بمجرد النظر إلى قلايته ، كان الراهب الذى به الروح النجس يطالب بدون إنقطاع بالعون من ضحيته وصلواته ويقول : بفنوتى بفنوتى أريد بفنوتى .

فاحضروا القديس بفنوتى وكان نسياً منسياً من يوم أن نبذوه . فتقدم بتواضع . وتوسل اليه الراهب البائس معترفا بخطيته جهراً وملتمساً عفوه الكريم . وارتفع القديس بفنوتى فى أعين متوحدى المنطقة . ومع هذا كان يحيا حياة الزهد

الصارمة وعبثاً حاول الهرب فى البيداء عزوفاً عن الجدالباطل، فكانوا يلاحقونه ونال سر الكهنوت.

فكان قساً كاملا، يبذل نفسه فى سبيل الخدمة وتأدية رسالته، ولم يفتر عن أن يقدم نفسه مثلا حيا للوصايا التى كان ينذر بها. وبقى راهباً ومتوحداً قبل كل شىء حتى شاخ ففى كل مرة كان له أن يقوم فيها بالخدمة المقدسة فى الكنيسة، كان يمشى مسافة عشرة أميال، وهى المسافة بين مقره وبين الكنيسة وكان ذلك بينما كان عمره تسعين عاما، ومع أن هذه المسيرة الطويلة وهو فى هذا السن الكبير تستوجب المثابة، إلا أنه أضاف اليها فكان يحضر معه جرة ملأى بالماء، ولا يقبل أبداً أن يحملها عنه بعض الرهبان الاصغر سناً.

+ + +

(٣)

القديس بفنوتى الأسقف المعترف

ولد بمصر، ولجأ منذ حداثته إلى دير «بسبير» (١) Pispir بعيداً عن العالم. وكان هذا الدير تحت إدارة القديس العظيم الانبا أنطونيوس ومن الصعب أن نعرف بالضبط كم من الوقت قضاه تلميذاً لاحد الرهبان. إلا أننا نعرف أن القديس بفنوتى كان اسقفاً فى الصعيد الاعلى أيام الإضطهادات الفظيعة التى أثارها «جالير» Galère (٢) و«مكسيمين دايا» Maximin Daia (٣)

كان ممتلئاً من الروح القدس، كان يعظ قطيعه وهو قدوة فى فضائله العالية وغيرته وشجاعته فى مواجهة أعداء الدين.

وذات يوم قام الوالى بحملة ضد المسيحيين وأخذ يبحث عنهم، فانتزع القديس من مكانه ومعه كثير من المؤمنين. فبعد أن إتجه إلى إحدى المدن الكبيرة وربما كانت «انتنويه»،

(١) على ضفاف النيل على مسافة ثلاثة أيام وثلاث ليال من تل الفرما، سيراً على الاقدام.

(٢) الامبراطور الرومانى من سنة ٣١١ إلى ٣١٤ م.

(٣) الامبراطور الرومانى من سنة ٣٠٦ إلى ٣١١ م. وكان نسيب دقلديانوس.

Antinoé ، أعترف بالإيمان القويم بقوة عجيبة . وحكم القاضي بتعذيبه .

فنقأوا عينه اليمنى ، وأحرقوا الجفن واللحم المحيط بها ، ثم نزعوا عصب الركبة اليسرى ، وأحرقوا الاعصاب والعضلات بواسطة الحديد المحمى بالنار ، حتى يعطلوا الساق عن كل حركة ، وأخيراً أرسلوه ليعمل فى محاجر «فينون» (١) Phénon حيث بقى أربع سنوات حتى نهاية الإضطهاد .

ونعجب كيف عاش بعد هذه المعاملة غير الإنسانية . وقد كتب القديس أنبا أثناسيوس إلى رهبان الصعيد يقول أن معترفين كثيرين أرسلوا إلى هناك ، وأن القليلين جداً منهم عادوا نظراً لحرارة الجو ، وسوء المعاملة .

وحينما دقت ساعة الخلاص سنه ٣١١م ، وأطلق العاملون بالمحاجر ، أسرع القديس بالعودة إلى مصر واستأنف مهام وظيفته ،

(١) بالقرب من البحر الميت

وكانت آثار التعذيب لا تزال بادية عليه ، وكان يلازمه التكريم ويميزه حتى نهاية حياته .

فكان يصنع المعجزات مثلما كان يصنع الرسل ، ويخرج الشياطين بكلمة واحدة ، ويشفى الامراض بصلاته ، وكان له سلطان على إعادة النظر للعميان والحركة للمفلوجين . وكان الله يعوضه بهذه المواهب عن العذابات التى تحملها أثناء نزع عصبه وقلع عينه .

وفى أثناء إنعقاد مجمع نيقيه كان هذا الطوباوى العائد من الإضطهاد يجذب كل الانظار وكان الامبراطور قسطنطين يحبه كثيراً ويكرمه لدرجة أنه كان يدعوه كثيراً إلى قصره ، ويقبل موضع عينه المقلوعة كأنه يتقبل عضواً مقدساً من بقايا أجساد القديسين .

ويشغل القديس بفنوتى مكاناً مرموقاً فى مجمع صور المنعقد سنة ٣٣٥م .

أراد أعداء القديس أثناسيوس أن يهلكوه ، وسلم القديس بفنوتى وغيره من أساقفة مصر مذكرة إلى « الكونت فلاڤيوس

دنيس « Conte Flavius Denis يصف فيها وقاحة الاعداء المتزايدة ومناوراتهم الخبيثة . وكان الإمبراطور قسطنطين قد أرسل فلافيوس تحت ضغط الاريوسيين لكي يحافظ على النظام، وهو من انصار الباطل عرف بانحيازه بشكل صارخ . لم يكن القديس بفنوتى بالذى يتراجع فى الحق . فقد دافع عن الإيمان القويم أمام مكسيمين ، فلايهتز أمام أحد البلاء .

وعندما لمح مكسيموس أسقف أورشليم وهو الذى تحمل نفس العذاب معه ، ومازال يحمل آثاره ، تقدم بشجاعة نحوه وقال له : « يامكسيموس لقد تحملنا الإضطهاد سوياً من أجل الحق ، وتعبنا سوياً فى محاجر « فينون » ، ومثل فتأوا عينك، وانتزعوا عصب ركبتك، فلذلك لا أطيق أن تجلس بعد وسط جماعة الاشرار ».

ولما قال هذا الكلام أخذه من ذراعه وأخرجه من مكانه واقتاده إلى خارج مكان الاجتماع . وعرف زميله المجيد فى جهاد الاستشهاد بكل المسائل التى كانت موضع خلاف ، وجعله يلس بنفسه خبث الاريوسيين، فكان سبب صداقته مع القديس أثناسيوس الرسولى صداقة مخلصة ثابته .

وكان القديس بفنوتى أيضاً أحد آباء المجمع المنعقد فى « سرديك » Sardèque (١) سنة ٣٤٧ م.

ولا يعرف تاريخ نياحته بالضبط . ويرجح أنه ذهب إلى الابدية قبل الاضطهاد الكبير الذى طرد فيه معظم أساقفة مصر من كراسيهم أيام القديس أثناسيوس الرسولى .

+ + +

(١) صوفيا Sophia عاصمة بلغاريا

(٤)

القديس بفنوتى الشهيد

وزملاؤه الشهداء القديسون

كان إضطهاد دقلديانوس على أشده. وكان الوالى اريانوس، والى الصعيد، يجوب كل مناطق الصعيد والوجه البحرى بحماس بالغ يهلك الموحدين والرهبان الذين نشرت نضائلهم فى الصحراء، وكأنه قناص يقتنل صيداً ممتازاً.

وفى هذا الزمان بالقرب من دندره كان رجل تقى يمارس تداريبه التقوية غير عابىء بشرطة الوالى، وكان معروفاً فى كل البلدة باسم أنبا بفنوتى. وكثيراً ما كانوا يشتكون عليه لدى المسئولين فى الصعيد كمجدف على الآلهة، وأنه يشتم «هاتور» ويحتقر القرارات الامبراطورية.

واتجهت فجأة سفينة الوالى الحمراء نحو الجنوب تتبع تعرجات النيل، ورست على الشاطىء، فأنزل منها أريانوس قائدى مائة وأمرهم أن يقبضوا على القديس بفنوتى قبل الصباح.

زهد القديس بفنوتى كلية فى أمور هذا العالم. وبينما كان فى تلك الليلة يمارس تداريبه كعادته، قال له الملاك: يا بفنوتى،

يابطل المسيح، فى مكان عزلتك قدم الرب الذبيحة المقدسة، ثم إستعد لتأتى لتتمتع بالملك فى الابدية. لاتقلق فى شىء. قد أرسل الوالى اريانوس أمهر قواد الشرطة بحثاً عنك، وقد أمرهم بالقبض عليك قبل الصباح وأن يقتادوك إليه. لاتخف من شىء: فإن الله سوف يعطيك قوة لكى تواجه الحاكم وتخزيه.

ففعل بفنوتى كما أمره الملاك. وبعد أن أكمل القداس الإلهى، ألقى رداءه على كتفيه وخرج من قلايته فرحاً كما لو كان ذاهباً إلى عيد: وكان الملاك فى انتظاره، فأخذ بيده وما زال الإثنان يتحدثان بأمور ليست من هذا العالم حتى وصلا إلى شاطىء النيل، فأعلن الملاك له كل ماسيحدث له، وبعد أن حياه إختفى.

وتطلع القديس من بعيد إلى الميناء فرأى تحركات الشعب الذى كان ينتظر صاحب أعلى سلطة فى الصعيد. فاتجه صوب الجموع الذين حضروا للهتاف للرجل العظيم، بين مظاهر السلطة وكانت القرى القريبة تموج بهم لتملق طموح الوالى.

وسرعان ماظهرت السفينة وسط أضواء الشمس المشرقة التى كانت تنعكس عليها فتبدو منيرة. وقفز أريانوس بخفة إلى

الشاطىء، واجتمع حوله رجال الدولة بدندرة والمدن الاخرى فى نفاق .

وأثناء هذه الاحتفالات التى كانت ضمن برامج الرحلة ، بدا الوالى منشغلا بشىء آخر ، فقد كان جل تفكيره فى بفنوتى الذى لم يستطع قواد المائة القبض عليه بعـــد أن جابوا كل المنطقة دون جدوى .

ولكن فجأة تقدم ذلك الذى فشلت حملتهم فى العثور عليه ، بهدوء كأنما وفد ليحيى الوالى بدوره . قال : « أيها السيد الوالى: إن الذى يحييك هو بفنوتى الذى تجد للبحث عنه ، انه بفنوتى المسيحى .

ويا لها من عملية تشغل الجنود، يلاحقون أفضل دعائم الإمبراطورية لكى يبرقوا دماءهم ، ولكنهم لايدركوننا بما يشتهون ، إذ أننا لنا الجوقات السمائية تحمينا وتحفظنا » .

كان كبار الشخصيات يتقدمون الواحد بعد الآخر، وماهى إلا هنيهة حتى أخذ الشعب ينصت بلهفة إلى الحديث الذى دار بين الوالى الذى يمثل النير الرومانى ، وبين هذا الراهب الشعبى الفلاح مثله .

قال اريانوس مستهزئاً : « هل أنت بفنوتى الشهير ، محتقر

الاوامر الإمبراطورية ! الجدف على الآلهة الصالحة ؟ » .

ـــ لست كافراً ، لانى أخدم الله منذ حداثتى . انما الكافر من يخدم الآلهة العديدة وهو عدو الحق » .

فصرخ الوالى فى حنق نظراً لان الحاضرين لم تكن ميولهم إليه : أيها البائس ! بأبولو وديان وهاتور آلهة هذه المدينة العظيمة ! لتذوقن العذاب » . ثم أمر الجنود أن يقيدوا رجليه ويديه بالاغلال ويقتدوه إلى السجن مع اللصوص والقتلة .

وسار موكب الامير إلى المدينة . أما بفنوتى فكان يتأمل قائلا: « يابفنوتى أنظر النصيب الصالح الذى لك فى هذا الصباح، تكون فى السجن بين اللصوص مثلما كان الرب يسوع على الصليب بين لصين » .

وبعد أن استراح الوالى قليلا ونظر فى الاعمال الجارية ، شكل محكمته وفتحت الجلسة . ونودى على بفنوتى ، فحضر فوراً وتقدم ببطء إذ كانت القيود تعوقه . وحالما وقف بين المتهمين انفكت السلاسل التى كانت تقيد يديه ورجليه من نفسها وانزلقت عنها كأنها قطرات ماء . فبدأ اريانوس يكلمه بلهجة ملطفه قائلا: « يابفنوتى ، ماهذا الحماس الفجائى الذى كان يحركك صباح

اليوم ؟ لمـــاذا وضعت فى ذهنك أن تموت وترفض تكريم الآلهة الخالدة ؟ » .

ـ « أيها السيد الوالى : إن مـــوت المسيحيين ليس موتاً حقيقياً ، بل هو عبور إلى الحياة الابدية. فلن أقدم ذبيحة إلا للاله الحقيقى خالق السماء والارض الذى يليق به وحـــده أن يعبده الناس ويقدموا له الذبائح » .

ـ « إذا كنت لا تزال تقاوم أيها الشيخ ! فسـوف أضطر إلى تعذيبك » .

فرد القديس مبتسماً : « أتحسب أن جهـــازك الجهنمى للتعذيب يفزعنى ويجعلنى أنكر إلهى؟ فى حيـــاة الوحدة التى نحياها ، ليس كل شىء لهـــواً ، بل إنا نتألم أيضاً ، وأن الله يساعد طبيعتنا الضعيفة ويعطينا الشجاعة والقوة اللازمة . فهل يتركنا أثناء عذاب الاستشهاد ؟ » .

ـ « إنى أعرف كل هذا الكلام يابنوتى. لاداعى للاستمرار، الافضل أن ننتقل إلى العمل » .

ورفع اريانوس الجلسة وأقتيد بفنوتى إلى الفناء حيث يتم تنفيذ الاحكام ، فانتزع الجلادون ملابسه . وعلوه فوق الارض قليلا وأخذوا يمشطون جسده بأمشاط من حديد إلى أن تمزقت

أحشاؤه . وكان ينظر إلى السماء بثبات حتى كأنه لا يحس شيئاً . ثم صرخ قائلا:

أيها الرب يسوع ، إنى مستعد أن أتحمـــل كل شىء لاجل محبتك، لكن لاتسمح أن أموت قبل أن يخزى أريانوس وآلهته الكاذبة » .

إنتهى التعذيب بعد أن أشرف الشهيد على الموت ، تناوبه من حين لآخر هزة عصبية . وفجأة ظهر ملاك الرب وشفاه واصبح جسده صحيحاً .

وعند رؤية هذه الاعجوبة ، آمن الجلادان دنيس وكلياك وتركا عملهما وركضا نحو الوالى يصرخان : « نحن مسيحيان » .

ـ « ماذا دهاكما حتى لا توقران المحكمة؟ أى تجاسر هـذا أن تنكر الآلهة الخالدة ؟ » .

ـ « أيها الوالى الشهـــير . كيف نصف لك ما شاهدناه الآن بعيوننا ؟ » .

ـ « حسناً إنها حيلة سحر جديدة. ليس عندى وقت أضيعه فى الاستماع إليكما . اذبحا أو تموتا » .

ولما رفضا جرهما آخران خارج المدينة وقطعـــا رأسيهما

بضربات فأس . ثم قام اريانوس ليستريح بعد يوم حافل .

وأقتيد بفنوق إلى الحبس فى مكان مظلم . وفى اليوم التالى كانت عطلة بالمحكمة جعله للتفتيش على الخدمات المختلفة وللزيارات الرسمية . وفى تفتيشه على الخدمات كان يبدى سخطه على تنفيذ الاعمال، وحكم بالسجن على كل موظفى المصلحة وكانوا أربعين موظفاً.

وفى الليل رأوا ضوءاً أبهى من ضوء الشمس يشمل السجن. فظنوا أن هناك حريقاً، وصرخوا بأصوات عالية جعلت الحراس يهرعون إلى المكان :

« ألا تخشون من أن تشعلوا هذه النار فى السجن . ان هذا الحريق قد يمكن المسجونين من الهرب فتكونون أنتم مسئولين عن هربهم ».

وأخذ رئيس الحراس يشرح بهدوء . قال : « انها ليست ناراً عادية ، وليس فى استطاعتى شىء ضدها: وقد مضت ليلتان حدث فيهما نفس الامر : ومنذ أن وصل بفنوق المسيحى كان الضوء ينير المكان طوال الليل ».

ولم يكن الموظفون يضايقهم شىء سوى تعسف رئيسهم الساخط الغاضب فاكتسبوا ثقة السجانين حتى اقتادوهم إلى مكان الشهيد . فلما وصلوا إليه وجدوا القديس مستغرقاً فى الصلاة ،

وبداء مرفوعتان نحو السماء وسط ضياء عجيب. فحركهم هذا المنظر لدرجة أنهم قضوا الليل فى الصلاة بتلهب واحد راكعاً ساجدين.

وفى الصباح حيوه إستعداداً للخروج . أما هو فاستوقفهم وسألهم عن أمرهم ، فأعلموه بما حدث فى اليوم السابق عند زيارة الوالى لاقسام الخدمات الادارية المختلفة، وحالته العصبية التى لا مبرر لها، وطردهم وسجنهم ، وأخبروه عن الضوء الباهر الذى كان يسطع فى السجن .

وكان بفنوق ينصت باهتمام إلى حديثهم، وعندما إنتهوا قال لهم : « يا أبنائى ماجدوى التشبث من جديد بأعمال هذا العالم . قد جوزيتم به أسوأ جزاء . وطفق يحدثهم عن يقين عن خدمة الله والخيرات الابدية حتى أقروا أنهم على استعداد للإعتراف بالإيمان بالرب يسوع لكى يكون لهم نصيب فى الجازاة السمائية .

وفى هذا الوقت فتحوا أبواب السجن ونادوا بفنوق ليمثل من جديد أمام المحكمة . فخرج المتوحد الشيخ فرحا وبصحبته الاربعون موظفاً . وعند دخل كان يقول : « أيتها المحكمة لك أبولو . أما أنا فلى ربى يسوع ».

وكان الاربعون موظفاً يملأون المكان ويصيحون معترفين بإيمانهم بالمسيح . فاغتاظ اريانوس لهذا المنظر الجديد. فصرخ

فيهم : « ماذا بكم . هل أثر فيكم قرار التأديب حتى فقدتم الرشد وأحقرتم الحياة وكل أفراحها ؟ » .

ـ « كلا ياسيد ، ولكننا أيقنا بطلان الهبات البشرية وعدم جدوى الامور الزمنية » .

قال : « إنه سحر » ،

قالوا : « أيها الوالى ، ليس فى ذلك سحر ولا شعوذة ولا شىء من هذا القبيل ، ونحن نستنكر تمسكك بهذه الطريقة ضده » ،

فحكم فوراً بالموت عليهم بسبب إهمالهم فى العمل وإيمانهم بالمسيح . واصطحبهم مائة جندى إلى الصحراء حيث حفروا حفرة ملأوها بالجر وألقوا فيها الاربعين موظفا فنالوا أكاليل الشهادة .

لكن بفنوتى وكانت لديه فترة صغيرة وقت محاكمة زملائه أخذ يخاطب الجموع الذين كانوا يبجلونه ، فآمن كثيرون وكانوا قد شهدوا العجائب التى حدثت فى اليومين السابقين .

واستشاط الوالى غضباً وقال : « أيها البائس محتقر الآلهة الخالدة ، لقد حان الوقت لنرى إذا كان مسيحك يأتى ليخلصك

من يدى » . وأمر الجنود أن يعذبوه بتعذيب « العجلة » حتى يتناثر لحمه ، وكان يشرف بنفسه على التعذيب .

لكن الرب أقامه صحيحاً من جديد ونزل على درج الهيكل وعبر الساحة فى طريقه بالمحكمة حيث قال :

« أيها الوالى : أنظر جيداً إلى ضحيتك التى مزقت لحمها . إن إلهى يسوع المسيح أقوى من أصنامك . وهو يرسلنى لتأنيبك حتى تقتنع بألوهيته » .

وأما أريانوس فكان قلبه متحجراً فلم يتغير بهذه المعجزة . أما القائد وجنوده ، وكان عددهم زهاء أربعمائة فقد أثرت فيهم كلمات التوحد وأعترفوا بألوهية المسيح ثابتين فى إيمانهم المسيحى . فحكم عليهم الوالى بالموت . فحفروا أربع حفر كبيرة عند حافة الصحراء وملأوها بالجر وألقوهم فيها .

ولما خشى أريانوس غضب الشعب ترك المدينة فجأة آخذاً بفنوتى معه ووصل بسرعة إلى سفينة كانت راسية فى الميناء الصغير . فاذا يهمه أن يلعنه الشعب أو يصرخ ضده ، أنه أرضى الآلهة ونفذ أوامر رئيسه الاعلى ، فهم المسئولون ، وهذا الراهب وحده الذى يقوم بتعذيبه هو الذى تمرر بموظفى المصلحة وأثار فتنة فى الجيش ذاته .

وأبحرت السفينة ولم يطق أريانوس رؤية القديس فقرر التخلص منه . ودب اليأس فى قلب الوالى وكان يرى أن هذه المعجزات ضرب من السحر والشعوذة ، وفى أنتنوبه(١) صلبه مربوطاً على جذع نخله وبقى معلقاً من الساعة السابعة صباحاً حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكان يبارك الله الذى جعله مستحقاً للموت بنفس ميتة ربنا يسوع المسيح .

وأنزل الحراس جسده ودفنوه . فكان جزاؤهم أنهم نالوا نعمة الإيمان وفيما بعد نعمة الشهادة بتقطع رؤوسهم بأمر دقلديانوس .

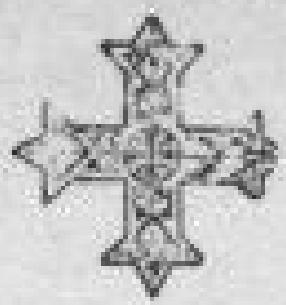

(١) الشيخ عبادة مركز ملوى .

أودع بدار الكتب تحت رقم ٤٩٦١ لسنة ١٩٧٠